

بَيْنَ الْعَدْلِ وَالْقَانُونِ

أَقْصُوصٌ مِصْرِيَّةٌ
بِقَلَمِ الْأَسْتَاذِ دُرَيْيْخِ شَكْبَةِ

— عجز من ياصديقي ؟
— عجزك أنت إنك بكلامك
هذا تبرهن على أنك رجل غير
مقاهم ، تؤثر أن تمش على هامش
الحياة ، دون أن تخوض عباها
فتصارع الأهوال فيها !

— أنت تظلمني يا عبد الكريم ، بل أنت
لا تفهمني !
— بل أنا أفهمك أكثر مما تفهم أنت نفسك .
إنك مع خشيتك من اللجوء إلى القضاء ، وهو
الطريق الأوحى الذى تنال به حقوقك ، تدعى أنك
ستنال هذه الحقوق بالنف ، فإذا عساك تفعل ؟
— سأقتله !

— أنت ؟

— أجل ، أنا !

— إنك لن تستطيع هذا !

— ولم لا أستطيع ؟

— لأنك رجل مذهب لا ترضى أن تلوث
يديك الشريفتين بالجريمة . ومع ذلك فالقضاء الذى
تفر منه اليوم ، هو الذى سيطارذك حتى يثار لأخيك
منك ... على أننى لا أدرى علام تريد قتل أخيك !
— لأنه ظلمنا !

— وكيف ظلمكم ياصديقي ؟ أليس أبوك —

عليه رحمة الله — هو الذى نزل له عن هذه العور
والضبايع ؟ هل اختلسها منه مصطفى ؟

— أبى لم ينزل لأحد عن أملاكه !

— تريد أن تقول إن هذا عمل مزور ؟ أليس

كذلك ؟

— لا ... وليس هذا أيضاً !

— وماذا تستطيع أن تنال بالنف ياصديقي
إبراهيم ؟ لم لا تلجأ إلى قدس القضاء تمرض
عليه شكواك ؟

— لن ألجأ إلى هذه الوسيلة المأجزة ياصديقي ؟
— للقضاء وسيلة مأجزة ؟ ماذا تقول ؟ لقد
بالغ القضاء فى مصر ذروة المدالة ، بل هو فى مصر
أزهر منه فى كثير من الأمم التى تفوقنا حضارة ...
فكيف ننته بالمعز ياصديقي ؟

— أنا يا أخى لا أنت قضاءنا بالمعز ، وإن
اقتناعى بنزاهة قضائنا لا يفوقه اقتناع . لكننى
مع ذلك أعده وسيلة عاجزة فى رد الحقوق ، وإن
شدت التخفيف من حدة التعبير ، فقل إنه وسيلة
بطيئة بطناً يشبه حبو القعد

— أنت تقسو فى حكمك يا إبراهيم !

— لست أقسو ، إذ هذا هو الواقع ، بل هذا
هو الذى يشجع أخانا على هضم حقوقنا .. إنه خبير
بأحوال محامينا وتمقد الاجراءات القضائية فيها ،
ثم هو مطمئن من أجل هذا إلى خشيتنا وشدة تخوفنا
من أن ندخل المحكمة . وهذا شموه عجيب يلابس
الطامعين وآكلى الحقوق ويجعلهم يفترون
الضغفاء ويخرجون من مساوئهم باغتبال حقوقهم
واضطراهم إلى قبول ما يمرضون عليهم صاغرين !
— إذن هذا هو شموه المعز !

ألا يلقى بنفسه في اللجة ، وكذلك التاجر الذي
يعتمد على الله في كسب قوته ، يخلق به ألا يكون
مفاسراً ، فإذا لم ير بأساً في أن يكون كذلك ،
فلا يخلق به أن يتجرده من كل فضائله ظناً منه أن
المقاسرة ليست أعلى درجة من اللصوصية

— وماذا كنت تريد أن يصنع إذن ؟

— كان الأفضل أن يدخل المترك وثرثره من
ورائه تسنده وتشد أزره ،

— وكيف كانت تسنده وقد خسر خسارة
كانت تذهب بكل ما يملك ؟

— لو حدث هذا لكان بقي له شرفه ،
والتاجر الذي يخسر ماله ولا يخسر شرفه يستطيع
أن يستعيد المال إذا بدأ الشوط من جديد . . . أما
أنه يستحل أموال الناس فيأكلها بالباطل فهذا هو
ضياع الشرف ، والتفريط في الكرامة التي جعلها
الله تاج عباده من بني آدم . . . على أنه ما استفاد
أبوكم ؟ لقد قعد ملوماً محسوراً يبق على القليل من
المال الذي أضاع حتى مات من الهم ، وتركك أنت
وأخاك الأصغر وأختك الصغرى فرائس لجشع
أخيك يستبد بك ، ويذيقكم لباس الجوع والخوف ،
دون أن يرعى الله فيكم ، ولا أن يرجو خشيته . . .

— لهذا أردت أن أقتله يا عبد الكريم !

— أنت تمود إلى نفمة لأحب أن ترددها أماً
وأنت تبرهن مرة أخرى على ضعفك واستخذائك . . .
والرجل الذي يهرب من القضاء العادل لأنه بطيء
كما يدعى ، لا يستطيع أن يقتل دجاجة

— إذن ماذا أصنع غير أن ألجئ إلى القضاء ؟

— وحتى القضاء يا إبراهيم لم يمد لك أمل في
أن ينتصف لك !

— إذن ماذا يا صديقي ؟

— لقد كان أبي يضارب بأمواله في التجارة
وقد أراد أن يصون ثروتنا بالنزول لابنه الأكبر
عنها . . . فهو نزول صوري كما ترى

— إذن هي اللعبة التي يلجأ إليها الناس لبأكلوا
أموال غيرهم إلى أموالهم ؟

— لقد كان أبي رجلاً شريفاً ، ولم يسع يوماً
إلى أكل أموال أحد . . .

— وأنت مع ذلك تجيز تصرفه وتبرره ؟

— . . . ؟ . . .

— وهل كسب أبوك في مضارباته أم خسر ؟

— لقد خسر خسارة فادحة !

— ومن الذي احتمل خسارته وقد نزل لابنه
هذا النزول الصوري عن أملاكه ؟

— احتملته الشركة التي كان يعاملها !

— وأموال هذه الشركة حلال لأبيك يضيئها
بمضارباته في غير مبالاة ؟

— لو أنه ربح لربحت الشركة مالا عظيماً . . .
وكم من مرة أربحها الألوف !

— إذن لم يكن أبوك تاجراً ، بل كان . . .
عفوياً يا صديقي !

— عفوياً ماذا ؟ ماذا كنت تريد أن تقول ؟

— لو كان الرجل الذي تتكلم عنه رجلاً آخر
غير أبيك لقلت إنه كان لصاً ولم يكن تاجراً . . .

— إنك تهينني يا عبد الكريم !

— عفوياً يا صديقي فوالله ما أردت إهانتك قط ،
وقد عرفت أباك ، فعمرت فيه النبل وحيد الخصال . .

غير أن محاولته صون ثروته بهذه الوسيلة كان
ضعفاً منه ، لأن الذي لا يجيد السباحة يخلق به

— ماذا تعني ؟

— أعني أن القاضي سيجد نفسه مقيداً بمقود

بيع رسمي من أيك لأخيك ، فإذا يصنع ؟

— إنها عقود باطلة !

— هذا كلام تقول أنت ، وقد تفهمه المدالة

التي تتصورها ، لكن للقضاء الرسمي لا يفهمه !!

— القضاء الرسمي ؟ هاها ... ألم أقل لك ؟

— ألم تقل لي ماذا ؟

— ألم أقل لك إن القضاء كما يجري عندما هو

أحسن وسيلة لنصرة الظالمين وإضاعة حقوق

الظالمين ؟ القانون ! آه من قانونكم يا رجال المحاكم !

القانون الذي أصبح في اختلاف تفسيره اختلاف

توزيع المدالة ، فهذا قاض يحكم ويزعم أن حكمه

العدل المحض ، فيأتي قاض آخر يلغي هذا المدل

المحض ويصدر حكماً يناقضه ، فيكون المدل المحض

الذي صدر عن القاضي الأول ظلماً محضاً ، ثم ما يلبث

قاض ثالث أن ينقض الحكمين جميعاً ويصدر هو

عدله المحض ، ولا تدرى المدالة بين القضاة الثلاثة

أين موضعها ولا أيان مستقرها

— في كل ذلك تمحيص للحقيقة يا إبراهيم

— تمحيص للحقيقة ؟ ما شاء الله !! وفيه

أيضاً إجاعة للمساكين وصرف لهم عن صرتهم

وإنفاق على المحامين وإضاعة ما يملكون من كفاف

المعيش ليحصلوا على ثمن تذكرة يسافرون بها إلى

مقر المحكمة ... وفي كل جلسة يحسبون أنها الأخيرة

فتكون الأولى ، وينطلق القاضي فيؤجل ويؤجل .

وينتحل الأعداء للتأجيل ، وكلما زين لهم محامهم

الآمال تبددت أمانهم بين شفاه القضاة ، فمادوا

إلى بلادهم محسورين

— وماذا عسى القاضي أن يصنع وهو يقف

أمام براهين قانونية ومواد مكتوبة ترسم له خطاه ؟

— لست أدري ماذا يصنع القاضي لأنني لست

قاضياً ، ولو كنت قاضياً لرفضت أن أنظر مائة قضية

في جلسة واحدة لاستغرق ساعتين !

— وهذا أيضاً لا يد للقضاة فيه يا صديقي !

— كل شيء لا يد للقضاة فيه ، وهذا هو الذي

يصرفني عن مقاضاة أخي .. وقد أفقتني من حلمي ..

لنفرض أن القضاء عندما يسير في مجراه السريع ..

ولننس هذه القضايا المكدسة في محاكمنا ، والتي

يكون قد مضى على آلاف منها سنون وسنون

ولما يصدر فيها حكم نهائي ... ولننس جشع المحامين

وتلاعبهم بتفسير المواد ليُصَيِّرُوا الظلم حقاً

والحق باطلاً ... لننس هذا كله ... فقد أرحتني

بصراحتك من الالتجاء إلى قانوننا لأنه لن ينصرني ..

قل لي إذن يا صديقي المحامي ماذا أصنع لأثال حق

من أخي ؟ وماذا يصنع أخي وأختي ليردا حقوقهما

المقتضية !

— لقد قات لك كلمة القانون يا إبراهيم !

— كلمة القانون التي لا تجعل لأحد منا حقاً

عند أخينا !

— لقد فهمت تماماً ما أردت أن أقول ...

وأرجو ألا أثيرك بهذا فأنت تستشيرني ، وبما أنني

صديقك أحببت ألا أخدعك !

مسكين هذا الشاب البائس إبراهيم !

لقد انصرف عنه صديقه المحامي بمد أن فاجأ

بموقفه وموقف إخوته من القانون تلقاء شقيقهم

من ميراثه لأنه يعرف الجميع إخوته يعرفون أن أباهم لم يكن يقصد إلى تلك النتيجة الخائبة التي انتهى إليها تصرفه المريب

وهو يقف الآن حائراً في منتصف طريق الحياة لا يدري أين يذهب ولا كيف يسير

إنه ما يزال يشدو العلم في مدارس القاهرة ، فليس في يده سلاح يفتنه عن هذه للثروة المنتصبة الضائقة ؛ وهو شاب عصبي المزاج ، يفكر تفكيراً غير سليم ولا مستقيم وإن كان فيه كثير من الواجهة إنه ينظر إلى معترك الحياة بمثل النظرة التي

ينظر بها أهل هذا الزمان ... نظرة المال !

إنه يرى كل شيء قد قام في زماننا على دعامة من للذهب ... فالتعليم الراق لا يناله إلا القادرون عليه من أبناء الأغنياء ولو كانوا أخط في مراتب الدكاه من أبناء الفقراء ... والتعليم الراق يصل المتعلمون إلى مناصب الدولة الكبيرة في حين يحرم منها أبناء الفقراء لأنهم لم يتعلموا ، والديمقراطية نفسها هي عنده كذب في كذب ، لأن معناها في اعتقاده وصول الأغنياء للقادرين على الاتفاق على المعركة الانتخابية إلى كرامى البرلمان ، فيجتمع ثمة رهط من المستبدن الأرستقراطيين ليتشدقوا بأنهم ممثلو الديمقراطية

فالتعليم ومناصب الدولة وكرامى البرلمان وقف في نظره على أبناء الأغنياء ، وإذا أحد من أبناء الفقراء وصل إلى إحداها بغلته من القدر ظل منظوراً إليه بأعين الريبة والامتناس في كل وسط يشاء ، وهذه الأعين هي أعين الأغنياء ...

لقد كان إبراهيم يطعم في مستقبل هؤلاء أهل

الأكبر ، ثم جلس وحده يفكر ... وبقدح زناد التفكير ، بيد أنه مع ذلك لم يستقر على رأى

لقد لجأ قبل أن يلتق صديقه المحامى إلى ذوى الروء من أهله وأعيان بلده ليكونوا شفعاء عند أخيه ، لكن أخاه لم يلب ولم تتحرك عاطفة واحدة من عواطف الرحمة في قلبه ... لقد استولى على قلب أخيه شيطان الدنيا ... لقد استحوذ عليه حب المال فأعماه وأضل بصيرته ... لقد استذله سلطان المادة فأنساه هذه الممانى السامية التي تصل بيننا وبين الله بصلات النور والهداية

ماذا يصنع إبراهيم ؟ ليكن هذا المال الذى نزل عنه أبوه لولده انقاء ماتمخض عنه المضاربة التجارية مالا غير حلال ، لأن المدالة لا تجعله حلالاً لأحد من أبناء للتاجر المتوفى ، لكنها تجعله حلالاً للشركة التي وقعت على رأسها الخسارة من جراء هذا التهريب وليكن هناك هذا الفارق العظيم بين المدالة والقانون

لكن المدالة في نظر إبراهيم ليست هي المدالة المطلقة التي تعرفها للفلسفة ... إنه يعتقد ، بل هو يجزم بأن الثروة التي نزل عنها أبوه لابنه الأكبر عن طريق تصرف قانونى صحيح ، هي حلال لأبناء المتوفى جميعاً ... وابس مما يفتنه أن يكون هذا المال حلالاً أو حراماً ، لأنه إن كان مالا نجساً فهو بأبيلوته للورثة قد تطهر كما تطهر مال الربا ب وفاة المرابى فلا يحرم أكله على أبنائه

ثم إن إبراهيم لا يقر اللعبة التي انتهت باستيلاء أخيه على كل ما كان يملك أبوه

وهو لا يحترم هذا القانون الذى يحرمه ظلماً

كلها ... أو الذى ذهب بثروة أبيه كلها ، سيذهب كذلك بالسعادة التى كانت من حق إخوته وسيضعها إلى سمادته هو ، وهو فى هذا لم يبال بالشقاء الذى يجره فقر إخوته عليهم والذى هو سببه ، فهو بهذا لص ، والعدالة تعتبره هكذا

كره إبراهيم أن يقتل أخاه إذن ، وكره لنفسه أن يلوث يديه بدم الجريمة كما ألقى عبد الكريم فى روعه ، لأنه شاب مهذب ... أو لأن القانون سيطارده ، وسيأخذه بدم أخيه إن فعل ... وقد هال إبراهيم أن يكون صاحب الحق فيقتل ثم يُقتل ... ماذا يستفيد من ذلك ؟ هل يستفيد شفاء نفسه من الحرد الذى يثيره الظلم فيها ؟ لكنه سيدفع الثمن ... وسيدفعه كبيراً مضاعفاً ... سيسلم رأسه للجلاد ... سيخرج من هذه الدنيا الجميلة المشرقة دون أن يستمتع بحقه فيها ... ثم هو سيرك أخاه وأخته فريستين لأخيه الظالم ، وهو بهذا سيحرمهما من القلب الأوحيد الذى يشفق عليهما ويرق لآلامهما ... بل هو سيحرمهما من النصير الذى يعرف أحزانهما ... وإذا خلا مكانه فى وجودهما فسيشغله مصطفى ... وسيشغله مصطفى بالاستعباد والقسوة والن ... وستكون كل لقمة يأكلونها من يده ، أو جرعة ماء يشربونها فى ظله سماً زاعافاً يمزق أحشاءهما ويهزأ كبديهما .. وحسبهما أن يكونا خادمين من خدم مصطفى ... أو كليهما من كلابه ...

ما أقسى المقادير على إبراهيم !!

صبر إبراهيم برغمه ... وماذا يملك العاجز غير الصبر ؟

ومن أجل هذا فكر فى الحصول على نصيبه من ثروة أبيه بأى طريق ، لأن المال وحده هو الذى ينيله ما يروم من جاه وسعادة وبلهنية ... وإذا فقد المال فقد القوة الدافعة ، وإذا فقد المال فقد فى بلدته الغاملة الصغيرة وحرم من التعليم ، واضطر لأن يتناق أخاه ويمرغ جبينه تحت قدميه من أجل اللقمة والكساء ، وبذلك ينحط إلى دركات الميبد لقد قسا عليه أخوه ، ولم ينفق عليه بمد موت أبيه إلا كما يتصدق بخلاء اليهود ... وكان يصحب كل قرش يرسله إليه طائن المؤلم والأذى المرير ... وقد طفق الكليل حيناً أنذره أخوه أنه لا يرى ذهابه إلى المدرسة ، وأنه يفضل أن يبقى ليساعده ، وقد فهم إبراهيم هذه المساعدة على أنها حرمان وتسخير ، فهمما على أنها أول الاستعباد ، ومن أجل ذلك صمم على أن يستخلص حقه من أخيه ولو أدى ذلك إلى قتله :

ما أشنع القتل !

لقد كان مصمماً على الجريمة قبل أن يلقاه صديقه المحامى عبد الكريم ، لكن عبد الكريم كان صريحاً فى النصيح إليه ... لقد قبح إليه الجريمة ، والإنسان المصنوع سهل القياد ، بشور بسهولة ، ويهدأ بسهولة أيضاً ، لكن صديقه قد أغلق فى وجهه كل باب ... باب الجريمة وباب القانون على السواء ... وباب العدالة منلق بطبعه لأن قلب أخيه الأكبر منلق بطبعه كذلك ... فماذا يصنع ؟

هل يخضع لما يريد له أخوه من قهر واستعباد ومذلة ؟ لا ! لن يكون هذا ! فنفس إبراهيم نفس أبيه لا تقبل الضيم ، ولا يروضها شئ على الهوان ... ثم هو يعرف أن إبراهيم الذى يطمع فى ثروة أبيه

— قم يا شيخ ! لا ترض هذا الهوان الذي أنت مقاسبه ! كيف يدعى أخوك أنك لا تملك حجراً من هذا البيت المنيف ؟ إنه إن شاء طردك الآن فلا يكون لك مأوى إلا بيوت المحسنين ؟ وإذا كان ذلك فاذا يكون فرق ما بينك وبين الشحاذين ؟ قم ! إنه لا يستحق إلا القتل ! للقتل وحده ينجيك مما أنت فيه ! تستطيع أن تحتاط فلا يراك أحد وبذلك تستعمل القانون في براءتك كما استعمله أخوك في سلب حقوقك ! أليس يحكم القضاء ببراءتك إذا لم تقم أدلة تدينك ؟ لن ينهض ضدك يرهان على أنك صنعت هذا ! أليس يمثل ذلك ضاعت أموال الشركة التي ضارب بها أبوك ؟ ألوف من الجناة والنصابين واللصوص والمياريين يفلتون من أيدي العدالة لأنهم لا يقومون في شراك القانون ! وهم يفكرون في الجريمة والسرقة وأكل أموال الناس بالباطل قبل أن ينفذوا خططهم فتجيء محبوبة وتطيش حولهم سهام القانون !

— هلم ! لا تكن جباناً !

وهكذا ظلت الشياطين عاكفة على فؤاده ترخرف له وتنفخ فيه حتى تشجع قليلاً وأخذ يفكر في الجريمة بالفعل ! وهونها عليه أن أباه وأخاه قد سبقاه إلى استخدامها من قبل ، فقد استخدمها أبوه ليأكل أموال الشركة ، واستخدمها أخوه ليفوز بكل الثروة التي نزل له عنها والده حتى لا تستولى عليها الشركة فيما إذا حاق به الخسارة المالية ، فلم لا يستخدمها هو ؟ بل هو يستخدمها لغرض أصمى ، إنه سيستخدمها للانتقام من أخيه الذي يريد أن يقتله قتلاً مدينياً حيث يبيض فقيراً معدماً ... وهذا ، كما يفهم

وأزف موعد العودة إلى القاهرة حيث تفتح معاهد العلم أبوابها ... فانقلب صبره إلى جزع ... وكلما اتى زميلاً من أقرانه فتحدث إليه عن السفر ، أربد وجه إبراهيم ، وشاعت السكابة فيه ، وحبس الدموع في مآقيه ، ثم استأذن وانصرف وكان يوم أوبة الطلاب إلى معاهدهم ، وخرجوا إلى المحطة في أهلهم وذويهم فرحين مستبشرين ... لكن إبراهيم لم يذهب إلى المحطة ذلك اليوم ، بل استخفى في حجراته الضيقة ، حجراته التي ينزعها القانون منه فيعطىها لأخيه لأنها جزء من المنزل لقد صار الهواء خائفاً حول الشاب البائس ... لقد رأى الثروة تفلت من يديه باسم القانون ... وشهد سعادته تزور عنه وتشيع بوجهها الجميل الخلاب ...

نظر إلى جدران الغرفة فأوحت إليه بأفكار غريبة سوداء ، وشهد الأبالسة ترقص فوقها تغريه بالشر ، وتعد إليه السكين المرفف المشحوذ ، وتصفر في أذنيه ، وتضربه في ظهره ، وتسكمه كلاماً عجيباً لم يكن من دأبه أن يسمعه من قبل

— لم تجلس بليداً هكذا ؟ لم يفوز أخوك بهذه الدنيا كلها ويطردك من فردوسك إلى ذاك الجحيم ؟ سيكون لك أبناء كما أن لأخيك أبناء ، فلم تقذف بفلذات كبذك إلى أيدي الشقاء والتماسة في حين ينعم أبناء أخيك بخير ما في الحياة من نعم وملاذ ؟ سيتعلم أبناء أخيك ويصبحون أطباء وعلماء ويفوزون بمناصب الدولة وكرامى البرلمان ، أما أبناءك وأما أنت ، فلن تجدوا حتى ما يملأ بطونكم إلا بشق أنفسكم ، ولو أنصف القانون لكنتم مثلهم إن لم تفوقوهم لأنكم عبقرتون !

التي ينتقم بها من أخيه ... وألحت الشياطين على
فؤاده توسوس فيه وتصرخ ، ثم تنلى دمه ليكون
حاراً فواراً يستجيب ولا يتردد

وفكر وهو يشجذ سكينه في أن يستخدم
الروذيلة في إخضاع أخيه . فكر في أن يفرى به
بعض السفهاء والشذاذ يهدونه ... وفكر في تلفيق
بعض اللهم التي يلصقها الأشرار بالآبرياء فتذهب
بشرفهم أو بثرواتهم ... لكنه هزى بكل ذلك
واستسخره فنبذه ولم يعد يفكر فيه

وكان لمصطفى مكتب في الطابق الأول من المنزل
يجمع أوراقه ومستنداته ، وإن لم يحو من الثروة
الطائلة التي خلفها له أبوه قليلاً أو كثيراً . فبينما
إبراهيم نازل على الدرج ، وبينما هو يفتح باب الردهة
التي تؤدي إلى مكتب أخيه ، إذا بفكرة مفاجئة تمر
كالبرق في خاطره ... ذلك أنه فكر في أن يقتحم
المكتب عسى أن يجد فيه شيئاً ينفعه ، وتقدم بالفعل
إلى الباب الهائل الذي بدأ يرقص أمام إبراهيم الخائف
الذعور ... ولشد ما شده الشاب حين وجد الباب
مفتوحاً ... فدخل ، وأغلق المكتب ، ثم بدأ يبعث
بأوراق أخيه ... ولما لم يجد بها ما ربه ، لم يبال أن
يحطم أدراج المكتب ثم أخذ ينظر في الأوراق نظر
الخائف الوجل .. وكانت أصابعه ترتجف كلما تناولت
ورقة ليرى ما هي ... وكان كثيراً ما ينتفض كلما
سمع حركة ، بل لقد هم أن ينصرف حينما سقط أحد
الأضابير فأحدث صوتاً مزججاً جعل الدم يتجمد
في عروقه

ثم شع برق الفرح فجأة في عينيه
وظفق قلبه بخفق بشدة

إبراهيم ، هو أشد القتل ، إذ ليس القتل في رأيه
دماً يتدفق من غلاصم القتل ، بل القتل هو تحويل
دم السعادة من مجراه الطبيعي إلى مجرى غير طبيعي
باسم القانون ، فيعيش المنتصبة سعادته كالقتول بل
أشد ، لأنه يحيا حينذاك ليتألم حتى يموت ، وليشهد
مأساته ويتجرع مرارتها ، بينما الغاصب يحسو أفوايق
السعادة التي سلبها من الغير بالغدر ، ويتلذذ دائماً
بأن صاحبها الحقيقي لم يستطع أن يستردها منه ،
ولذلك لديه في نفوس الغاصبين ، بل هم أحياناً
يتشدقون به في تيه واقتنار

إذن ، لقد صمم إبراهيم على قتل أخيه ... ولم
يعد يفكر في فشل محاولته مطلقاً ؛ بل هو قد صمم
على ذلك وهو مدفوع بتيار الماطفة المشبوبة التي
تأكل صدر صاحبها ، كما تأكل النار بعضها ...
لقد عميت بصيرته هو أيضاً . لقد آمن بهجزه عن
السمي في الحياة كأن أباه لم يترك له شيئاً قط . وهذا
هو أكبر عيوب شبابنا ... لقد كبر عليه أن يبدأ
جهاده من حيث كان يظن أنه أوشك أن ينتهي ..
ومن أكبر عيوبنا نحن الشرقيين أننا سرعان ما نقطع
من النجاح في الحياة لمجرد للفشل الأول الذي تقع
فيه ، أو العقبة الأولى التي تعترض سبيلنا ، وقد
ننتفي عن مواصلة السعي ظناً منا أن كل شيء قد
انتهى . ونحن أقوام نؤمن إيماناً سخيلاً بالحظ ، مع
أن ديننا هو أقوى الأديان ، ولن نستحي من أن
ندعوه دين القوة والسعي ومواصلة الكفاح مع
الاعتماد على الله في ذلك جميعاً

لقد عبس إبراهيم للحياة وتجهم ، وانطلق
يشكوسه حظه ، ويتسخط على المقادير ، ولم يفكر
في خطة إيجابية قط ، لم يفكر إلا في الوسائل الممتدة

— بل هي الفلسفة التي تعلمتها منك !
 — وماذا سرقت من مكتبي إذن ؟
 — أنا لم أسرق شيئاً ذا قيمة فاطمئن !
 — أنا مطمئن يا إبراهيم ، فأما لا أضع ملياً
 ولا مستنداً في مكتبي ، ولا في بيتي ، وأنا واثق أنك
 لن يهدأ لك بال حتى يخرب منزلي
 — وإن لم تتق الله في وفي أخويك علي وسعاد
 فسيمجّل الله خراب بيتك ، وإنني أنذرك من الآن
 — ولن يستجيب الله لك إن شاء الله
 — أنا لا أبلغك يا مصطفى ! إن لم ترد إلينا
 ما هو حق لنا فلن يبقى لك ما لم واحد من ثروتك
 الواسعة ينفعك ، وعندها تمض على أنامل الندم !
 — وكيف ؟ أي حق لكم عندي ؟
 — ما كنا نرثه لو لم ينزل لك والدنا عن ثروته
 حتى لا تضيع بالمضاربة !
 — لقد باع لي أبوك بيماً حراً مسجلاً ، وقد
 أخذ تقودي فضارب بها فضاعت ، ولولا ذلك لكنت
 اليوم أغني حلالاً بما أنا فيه !
 — هذا هو الكذب والتلفيق الرخيص لأنك
 لم تكن تملك ستين ألفاً من الجنيهات !
 — لقد نظرت هذه المسألة أمام المحكمة المختلطة
 وثبت بالقانون أنني كنت أملك أكثر من هذا
 المبلغ لأنني كنت شريك والدي في تجارته وقد
 شهد التجار وشهدت العقود بذلك ، ولسنا بحاجة
 إلى حججك يا سيد إبراهيم ؟
 — ستعرف أن كل هذا باطل إن لم ترد إلى
 حقوق كاملة ، وإن لم ترد إلى أخويّ حقوقهما
 كاملة كذلك ؟
 — ليس لكم عندي حقوق فأفعل ما بدا لك

يا فرج الله ! خطابات من الشيخ عبد الواحد
 عليه رحمة الله إلى ولده مصطفى يخبره بما صح عليه
 عزمه من النازل له عن ثروته بطريق البيع والتسجيل
 لأنه شارع في مضاربة إما أن تضاعف ثروته أضافاً
 مضاعفة ، وإما أن تذهب بالأخضر واليابس إذا بقي
 في يده أخضر أو يابس !

ثلاثة خطابات طويلة عريضة فياضة بخط الشيخ
 رحمه الله وتجاوز عن سيئاته تشرح الموضوع وترسم
 الخطة وتضع التواريخ

لقد كتبها الشيخ من الاسكندرية في الشهر
 نفسه الذي تم فيه البيع والتسجيل بالحكمة المختلطة
 هذه هي السكين حقاً ! وهكذا يكون القتل !

— أنا يا قليل الخير ، يا ناكر الجليل ، أنا الذي
 سترتك ولمت شعئك بعد موت أبيك ، يكون
 جزائي منك أن تتجسس عليّ ، وتبحث ورأى ،
 وتنسل كاللص إلى مكتبي فتحطم أدراج عسك
 تقع على سلاح تغمده في صدري ؟

— أينا كان لصاً يا مصطفى ؟ أنا أم أنت ؟

— سل نفسك !

— لقد سألتها فقالت إنك أنت كذت اللص !

— لأنني كسرت الأدراج وسرقت ما سرقت ؟

— ليس هذا كل ما يفعله اللصوص !

— وماذا يصنعون أكثر من هذا ؟

— من الناس لصوص لا يحطمون الأفعال

ولكن يحطمون حياة الناس ويسلبونهم سماتهم ،

والمؤلم أن القانون لا يدعوهم لصوصاً ، بل هم أمامه

شرفاء معقولون

— هذه هي الفلسفة التي تعلمتها من المدارس !

بسرعة زائدة من خاطره ، بعد أن فكر فيها خمسين
أو ستين يوماً على الأقل . .

أما مصطفى . . . فياللهول ! لقد رأى خرابه في
هذا الخطاب الذي راح يتلوه إبراهيم عليه ، فلم يفكر
إلا لحظة . . . لحظة واحدة . . . واندفع كالذئب يغمد
سكينه في صدر أخيه حتى تخيب مؤامراته ، وحتى
لا تضيع ثروته ، وحتى لا تأخذ المدالة بجراها ،
وحتى ينتصر القانون . . . القانون الذي لا جرم
كان يحكم على مصطفى وينزع منه أملاكه ويردها
إلى الشركة لو أنه فاز بالخطابات التي مع إبراهيم !
والقانون في ذلك يشبه السكين تماماً ، أو يشبه
المدفع يكون في يد المحارب يصب منه النار على
أعدائه ، فإذا سقط هذا المدفع في يد الأعداء
لم يتوانوا عن صب ناره فوق رأس صاحبه !

هنا إذن فرق ما بين إبراهيم ومصطفى . . .
لقد كان إبراهيم شاباً مهذباً قرأ التاريخ والأدب
ودرس الدين وعرف الله . . . ولذا لم يستطع أن ينفذ
الجرعة التي اعتزمها لأنه لم يجبل على الشر ولم يجز
الشر في دمه . . . ولما وجد الخطابات حمد الله
واستبشر ، لأنها جنبته هذه الخطوة الدامية التي كان
في شك من مصيرها

أما مصطفى فلم يفكر كثيراً . . . إنه استهول
أن تضيع ثروته التي يفضاها على كل شيء ، فلم يبال
دينار ولا رباً ولا ضميراً . . . ولذلك لم يكافه الفتك
بأخيه شيئاً إلا أن ينقض عليه كالبرق ، وأن يغمد
سكينه في صدره !

لم يقتل إبراهيم ! بل ظل في المستشفى شهراً
وبعض الشهر ، ثم خرج منه سليماً معافاً
ورفض أن يتهم أخاه ! وأربك صمته رجال
المقضاء وحيرهم ! ترى علام عول ، وماذا اعتزم ؟ !

إن استطعت أن تفعل شيئاً !

— ستري أنني مستطيع عمل كل شيء ،
ولكني أسمعك خطاباً كتبه إليك أبوك عما كان
ينقوي عمله قبل أن يبيع لك أملاكه هذا البيع
الصوري الذي تنسب الآن به كأنه حقيقة لا ريب
فيها ياسيد مصطفى ، فاسمع :

وشرع إبراهيم يقرأ الخطاب الأول ، وما كاد
يصل إلى نصفه حتى مادت الأرض تحت قدمي
مصطفى : وحتى انطفأ نور العالم الجليل في عينيه . .
ولم ينتظر حتى يتلو أخوه الخطاب كله . بل هب
كالعاصفة ، وانقض على أخيه المسكين فطمته في
صدره وبطنه عدة طمنات بسكين كان يحملها معه ،
وكانت لا تفارقه في روحته وجيئاته . . .

ووقع إبراهيم يتشحط في دمه ، وأسرع
مصطفى فتناول الخطاب الذي كان أخوه يتلوه . ثم
دفع يديه في جيوبه يبحث عن خطابات أخرى
أو وثائق من هذا الصنف الخطر الذي إن وصل
إلى خصومه من رجال الشركة لم يبق له من حطام
فردوسه شيء . . .

وترك أخاه يجود بأنفاسه ، ثم أسرع ففسل
يديه وأحرق ملابسه التي علق بها شيء من دم أخيه
وساعدته زوجته في كل ذلك . ثم صعد إلى حجرة
أخيه فبحثها بحثاً دقيقاً عنه يقع على شيء مما دبر
إبراهيم له . لكنه لم يقع على شيء .
أرأيت إذن ؟ !

لقد فكر إبراهيم في الجريمة ثم عدل عنها ، ثم
صمم على ارتكابها ، لكنه حيناً عثر على خطابات
أبيه نسي للقتل ونسي السكين ، ونسي كل شيء ،
لأنه حسب أنه انتصر . . . وأن أخاه سيخضع له
أو تذهب كل ثروته . . . وهكذا انتفت فكرة القتل

عليهم أموالهم حين يستصفون أملاك الشيخ
عبد الواحد عليه رحمة الله ، وتجاوز عن سيئاته
ولما خرج مصطفى من المحكمة صفر اليدين ،
نظر حوله إلى الدنيا الواسعة الجميلة فلم تبسم له على
جاري عادتيا ! بل لعلها تبسمت ساخرة منه ، ولعل
هذه الالبسة هي التي جعلته يشحذ سكينه فينمدها
في صدره ، لأنه لم يطق أن يذهب إلى المنزل المنيف
فيقال له : « كلاً أيها السيد ، ليس هذا مثلك ! »
ولأنه عاش حياته لا يصل بينه وبين الله ، بل هو لم
يسرف له إلهاً غير هواه ... ولو قد عرف الطريق
إلى الله لحسنت آخرته وحسنت دنياه ...

وأنتم إبراهيم تعلبمه ... وظفر في الحياة وناضل
من أجل الثروة .. لكنه برغم ما جمع وبرغم ما اكتنز
لم يبارح خياله طيف أخيه ، فكان يبكي من أجله
ويستغفر له ربه ، ويجعل بين يدي نجواه صدقات
يفعل بها أبناء مصطفى ... فلم يدعهم يشعرون بمرارة
اليتم أو صرامة الموز ربي ختم

لقد فتح ذلك الحادث الرهيب عينيه على حقيقة
الدنيا ...

نضال !

أليست الدنيا نضالاً في نضال ؟ فلماذا تكون
نضالاً من هذا الصنف الوضيع ؟ لماذا تكون نضالاً
على ميراث ؟ لماذا لا تكون نضالاً ثريفاً ؟ لتكون
كذلك إذن ... وليبدأ إبراهيم للنضال الشريف من
أجل الرفعة إذن ... إن الدنيا ليست لن ورث الثروة
بل هي لن عمل عليها وملكها بكده وكدحه ، وإن
الذي يملك الدنيا من هذا السبيل لبشر بلذة حلوة
سحرية ، ليس يشمر بمثلها الذي ملكها من طريق
أبيه ... مثال ذلك الطير إذا وقع على القريسة بعد
أن يرمقها ويتخيرها فهو ينشأ أظفاره فيها بفخار
وعظمة ، أما القريسة التي تسقط على الطير فقد تكون
جيفة تقتله أو تصمقه !

هذا هو الوحي الجديد الذي هبط على إبراهيم !
وهو وحي كريم طيب خير وإن نبع من جراحات
وكاوم ، وارتوى من دم كريم طيب خير مثله !!
وتبسم إبراهيم تبسمة خبيثة هي بقية الشر في
نفس آدم !

ذلك أنه سمم هذه المرة على أن يشرك أخاه
مصطفى في هذا النضال ... !

فكرة عجيبة !! لكن تنفيذها سهل هين ! إن
الخطابات التي وقع عليها في مكتب أخيه محفوظة
في مكان حرز لم تمسها يد ... أما الخطابات التي
أخذها مصطفى حينما طعن أخاه ، فهي صور نسخها
إبراهيم ، وقال فيها خط أبيه تقليداً عجيباً انطلى على
مصطفى ولم يجعله يشك قط في صحتها

وهكذا ذهب إبراهيم إلى رجال الشركة فساومهم
على مبلغ كبير جداً لقاء هذه الخطابات التي ترد

آلام فرتر

للساعر الفيلسوف جوتة الروماني

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

وهي قصة عالية تعد بحق من آثار للفن الخالد

تطلب من إدارة مجلة الرسالة

ونعماً ١٥ قرشاً